ـ مَنْ فَعَلَ لكِ هذا؟

ـ الحماشي، يا سيدي الحاج.

ـ وأين؟

ـ في الحمّام يا سيدي الحاج، جَرُّني إلى بيت العبادة.

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ثم تدخّل السيد القائد، فأخبر مناش أنّ الحماشي يتبرأ من التهمة المنسوبة إليه، وأنّ الأمر يتطلب إحضارَ تقريرِ الطبيب الشرعيّ الذي يُثْبت أنّ الجنين هو جنينه، وأنّه في وقتنا الحالي لا يمكن إلقاءُ القبض على أحدٍ ما لم تَثْبتْ إدانتُه.

حين كان السيد ممثّلُ السلطة يتكلّم، لم تكن مناش تشعر سوى بالرغبة في الانسحاب من تلك القاعة. فهي لم تكن في مستوى الإنصات إلى دروسٍ في القانونِ وحقوقِ الإنسان، بقدر ما هي في حاجةٍ إلى أبٍ شرعيٍّ للجنين في رَحِمِ ابنتها سعاد.

خوفاً من الحبس، هَرَبَ الحماشي خارج المدينة ولم يترك وراءه أثراً. أما مناش، التي علمتْ بخبر اختفائه، فقد دبَّرتْ أمرَ إجهاض ابنتها.

وأما الحاج الطيب... فقد أغلق حمّامه لمدة شهر ونصف، وعَمَلَ خلال ذلك على إدخال إصلاحات جذرية في الحمّام، فقسّمه إلى حماميْن، وألغى تلك القاعة المخصصة للصلاة، وأصبح يملك حماماً للرجال بمدخله الأصليّ، وحماماً للنساء مدخلُه من الواجهة الخلفيّة.

ازغنغان (المغرب)

هموم صغيرة

محمد الحسناوي

رجلٌ كهلٌ أدخل يده في فمه. أخرج حصاةً ملساء بحجم حبة الملبس، اصطكتْ بها أسنانُه. ألقى بها في بركة الماء ليستريح منها. الحصاة ابتلَّتْ بالماء. ترنحتْ يميناً وشمالاً قبل أن تَسْقط إلى القاع وتستقرّ. صفحةُ الماء تجعّدتْ دوائرَ دوائرَ متتابعةً من المركز إلى الأطراف. دوائر التجعُّدات اصطدمتْ بأطراف البركة قبل أن تَخْمد أو ترتدّ إلى مكان انطلاقها.

قال الحاج عبد الواحد لابنه حامد:

ـ هل ترغب في الذهاب إلى عند أخيك عبد الرحمن؟

أخوه عبد الرحمن أصغر منه بسنةٍ واحدة. وهو ابن الزوجة الثانية للحاج عبد الواحد. ذهبتْ هي وابنها الوحيد بصحبة أُسرة أختها إلى حمّام الشيخ عيسى المعدني الواقع في ريف مدينة «جسر الشغور». حامد ابن الزوجة الأولى القديمة، وهو الآن يمضي وقته عند أبيه أمام الدكان، ينعس فيميل رأسه قليلاً، أو يتمشى ذهاباً وإياباً، أو يقرأ في كتاب أصفر اللون عنوانه: **الأميرة ذات الهمة**، كان قد استعاره من الدكان المجاور.

*

ـ لماذا جئتَ!؟

قالت الزوجةُ الجديدةُ بغضبٍ واضح، مخاطبةً ابنَ زوجها حامداً.

امرأة مكتهلة. سوداء العينين والحاجبيْن. عيناها قادرتان على قذف السخط حين تتحركان يميناً وشمالاً، وحين تتركزان في عينَي المخاطَب، وحين تزمّ شفتيها المتيبستيْن، وتلوِّح بيدها من خلال الأساورِ الذهبيّة، أو تميل بوقفتها: ترتدّ كتفاها إلى الوراء قليلاً، وتتقدم رجلُها اليمنى إلى الأمام. كل ذلك يعرفه حامد. حفِظه عن ظهرِ قلبٍ.

استعدّ له هذه المرة أيضاً. قال أو سوف يقول لها:

ـ والدي طلب مني أن أجيء.

*

لماذا قذف الرجلُ الكهلُ هذه الحصاةَ في البركة؟

لعله أراد أن يتسلى بمنظر الحركة التي تبدّل السكونَ الآسنَ: تجعدات، كركرات، فقاعات هوائيّة على السطح، استقرار الحصاة في القاع، اصطفافها إلى جوار أخواتها من الحَصَيَات.

لعله أراد أن يتخلّص مِن اصطكاكها بأسنانه. هذا وحده هدفٌ كافٍ.

لعله أراد أن يبتلي بها مَن ابتلاه بمتاعب. إنه انتقام. واحدة بواحدة.

الحاج عبد الواحد طيب القلب، تقيّ ورع، يَزْهد بالخصومات.

إذنْ لعله مهموم من ازدواجيّة العلاقة بينه وبين زوجتيْه، ومِنْ تمييزه اضطراراً بين أولاده منهما.

لديه من الزوجة الجديدة ولدٌ وَاحد. ومن الزوجة القديمة بنتان وصبيان اثنان. أليس هذا وضعاً مغرياً بالتمييز؟ الولد الوحيد استقطابٌ لعواطف الأبوين، ومدعاةٌ للتحبب والدلال.

*

وصل الفتى إلى كاراج حمّام الشيخ عيسى. سأل المنادي عن أجرِ مقعدٍ واحد. أجابه بصوت أجشّ:

ـ نصف ليرة.

ـ أَدْفَعُ لك سبعة فرنكات.

ـ لا يُمْكن.

على الرغم من ذلك دخل الفتى السيارة. اتخذ لنفسه مقعداً في آخرها. لم يزدحم الركّابُ بعدُ. بوسعك أن تراه صبياً في الثالثة عشرة من عمره. حنطيّ اللون. ليس فيه لحم مكتنز غير خديه. سوادُ شعره يميل إلى لون القهوة. ومثل ذلك لونُ عينيْه الوديعتين وحاجبيْه، والزغب الذي بدأ يُطِلّ في سالفيْه. حبيباتٌ متفرقة من حبّ الشباب تَلُوح على بشرة وجهه. وفي رجله حذاءٌ صيفيّ بنيّ اللون. قميص كستنائيّ غير صقيل. بنطال بنيّ داكن، مشدود على الخصر بحزامٍ جلديّ. في يده البيضاويّة سبعةُ فرنكات مجهّزة للدفع.

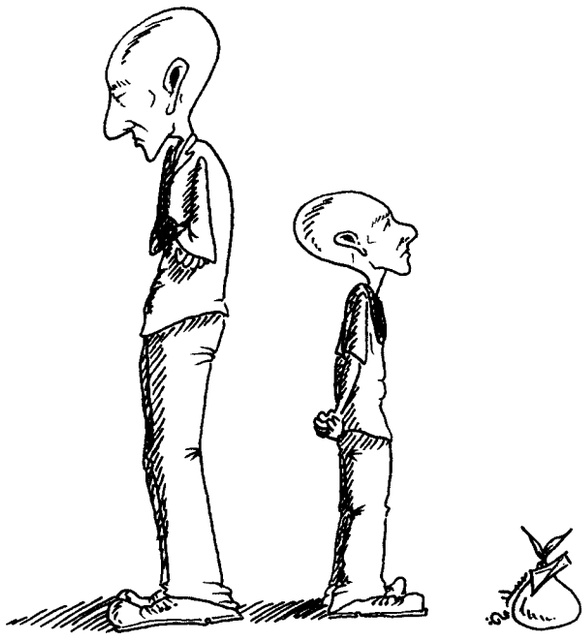

بدأتِ السيارةُ تكتظّ بالمسافرين والأمتعة داخل السيارة وخارجها. إنّها سيارة (أوتوبيس) زرقاء اللون. حمولتُها اثنا عشر راكباً، ومع ذلك يُحشَر فيها، عادةً، أكثرُ من عشرين. انحصر حامد بين النساء والرجال والأمتعة، حتى لا تكاد ترى غيرَ رأسه المدوّر. ربما كان ذلك سببَ إهمالِ المنادي له عند جمع الأجور. أصرّ هو على تخفيض الأجرة، وأصرّ المنادي على الرفض. حين سارت السيارة بقيت الفرنكات في قبضة حامد. العرق بحبيباته المتلاصقة غطّى القطعَ النحاسيّةَ الصفْرَ الصدئة.

*

أزمة المواجهة مع زوجة الأب وَضَعَ لها حامد حلاً، فلا يُتْعِبن نفسَه الآن في التحضير لها. هذه أزمة أولى. الأزمة الثانية هي أجرة السيارة التي لم تُدْفع، أو لم يقبضْها المنادي «أبو عدنان» نسياناً أو عمداً. ماذا يفعل بها حامد؟ إنه يخجل الآن، بل يخاف من مواجهة السائق: فلربما وبّخه على ركوب السيارة بغير ثمن، أو ربما رَفَضَ نقصانَ الأجرة ثلاثةَ فرنكات، أو ربما أنزله من السيارة حيث لا سيارات ذاهبة أو آيبة في مساءِ يومٍ خريفيّ. الأفضل أن يطالبه المنادي بالأجرة حين مغادرة السيارة؛ حينذاك يَفْتَح الله: «ما معي غير سبعة فرنكات. أَرْجِعْني إلى الجسر، إنْ شئت...». الأزمة الأخطر هي نزول هذه السيارة الهرمة، المكتظة بكل هذه الأرواح، من رأس هذا الجبل الصخريّ الشاهق إلى قاع الوادي العميق، حيث مجرى نهر العاصي والحمّامات المعدنية.

*

الشجاع يموت مرةً واحدة، الجبان يموت مئة مرة. فلنجرِّبْ. انقلبتِ السيارةُ من قمة المنحدر الصخريّ الوعر. قلبة واحدة «آخ». قلبتان اثنتان «مئة آخ». ثلاث قلبات.. لم تَعُدِ الأصوات تُميَّز. هدير مختلط من أصوات الأطفال والنساء والرجال، وارتطام الخشب والحديد والأمتعة بالصخر الوحشيّ، الصخر الأجرد، الصخر المدبَّب الحوافّ. كتل ضخمة صلبة يَصْدم بعضُها بعضاً بشدّة، وتَهْرس بين أشداقها كتلاً لحمية هشّة وعظاماً بشريّة: رؤوس. أذرع. سيقان. أصابع. عيون. مقل. «آه. آه. آه. ما هذا البلاء؟! ليتني دفعتُ الأجرة كاملةً قبل وقوع الحادث. ليتني أخليتُ ذمتي، أرضيتُ ربي، أرضيتُ الناس. لم أكن أتصور الموت بهذه السرعة، وبهذه الآلام. آخ. آخ.». لم تنته المأساة حتى وصلت البقيةُ الباقيةُ إلى نهاية الهاوية. تناثر كثيرٌ من الأمتعة والمسافرين، بين جرحى وقتلى. غابت الشمس. جاء الليل. هطل المطرُ مدراراً. اختلطتِ الدماءُ بوحل المنحدرات الأحمر. تأخّر وصولُ النجدات. «أين الناس؟ أين الأهل؟ أين الشرطة؟ أين الأطباء»؟. صحا الفتى حامد نصفَ واعٍ في أحد أسرّة المستوصف. جدران صفراء. حوله الأقارب يتمتمون هامسين. وجوه شاحبة مذعورة. جسمه متخشّب بالأربطة والجبائر. رأسه مثقل بالجراح والضمادات. غشاوة ضبابيّة تُرهِق جفنيْه ومقلتيْه. روائح الأدوية والتخدير حرّيفة.

ـ أنت بخير. إنْ شاء الله. لا تخف.

ـ كيف لا أخاف؟ أنا أعلم أنّ تدهور السيارة في هذا المنحدر لا نجاة منه.

قال ذلك بنبرات متقطعة مكسّرة، ممطوطة، وبجهدٍ غيرِ عاديّ. تابع بإصرارِ مَنْ تأكد أنْ لا فرصة أخرى له كي يتكلّم:

ـ أوصيكم بأنْ تُكْملوا دراسةَ إخوتي من بعدي.

*

ما معنى توصيته بتدريس إخوته؟

أخته «صبيحة» و«مديحة» أكبرُ منه سناً. حُرِمَتا فرصَ الدراسة خشيةَ أن تكتبا رسائلَ غراميةً. هل كل البنات اللواتي تعلَّمن القراءة والكتابة تَوَرَّطْنَ في علاقات غراميّة بسبب هذه القراءة والكتابة؟ أهو الجهل؟ أم ضيقُ الأفق؟ أم صراعُ الزوجيْن تحت سقف واحد؟ أم صراعُ حزبَي الزوجتيْن من خلال الزوج؟ على كل حالٍ هذا ما حصل. لا أمل بعد الآن بتدريسهما. مَنْ بقي؟ بقي أَخَوَان أصغرُ من حامد. أما عبد الرحمن، ابن الزوجة الجديدة، فَوَلَدٌ محظوظ، لا عقبة أمام استكمال تعليمه؛ فأمه ذاتُ حظوةٍ وسلطة. وهناك «بشار» أخو حامد من أمه وأبيه، في الصف الثاني الابتدائيّ، لا رغبة لديه بالدراسة، يمضي أوقاتَه بين أسماك نهر العاصي وحمام الدار. أمّ حامد امرأة أميّة. الأب مَذْهبُه في الحياة وفي التربية تركُ الأولاد على سجيتهم: لا يَحْزن كثيراً إذا أخفقوا، ولا يَفْرح كثيراً إذا نجحوا، ويَخْضع لتأثيرات الآخرين، ولاسيّما زوجته الجديدة وحزبها من الأقارب.

ـ إذن أوصيكم بأن تُكْملوا تدريسَ أخي بشّار.

*

كانت سيارة الأوتوبوس الزرقاء تدبّ على الطريق مثلَ السلحفاة حين وصلتْ سالمةً إلى نهاية الوادي. أخذتِ الشمسُ تجرّ آخر جدائلها الحمراء مِنْ على القمم المخضبة بالأرجوان. اضطر حامد الآن إلى الاستعداد لمواجهة زوجة أبيه، التي قال عنها: «يفتح الله». والآن «يا فتّاح، افتحْ بالخير».

لم تكن هذه هي المواجهة الأولى من نوعها مع زوجة أبيه. فقَبْل أربع سنوات، وفي ذكرى أول عيدِ جلاءٍ يمرّ بسورية، حمله خالُه معه إلى مدينة حلب. وبعد يوم أو يومين دَفَعَه إلى غرفة في الفندق، حيث تنزل زوجةُ أبيه وأقرباؤها. كان أبوه آنذاك في دمشق. وحين حضر مساءَ ذلك اليوم من سفره سُوِّيتِ المشكلةُ ببقاء حامد مع أخيه عبد الرحمن وزوجة أبيه حتى آخر يومٍ من أيام زيارة حلب. كيف سُوِّيتِ المشكلة؟ لا يهمّ. التسوية تمت بين الأب وزوجته.

*

على الرغم من كل شيء فَرِحَ عبد الرحمن بوصول أخيه حامد. وَضَعَ كلٌّ من الأخوَيْن يده في يد الآخر. ابتسما. توجها إلى «حمّام الرجال».

عَبَرَ حامد بوّابة الحمّام الخشبيّة المنخفضة. استقبله الظلامُ وبخارُ الماء الحار ورائحةُ الكبريت الشبيهة برائحة البيض الفاسد. تقدّم حافياً نحو المشاجب الرطبة. كان هناك نثارُ ضوءٍ خافت ينوس من مصباحٍ غائم، فينفث في الجوّ سحراً. خلع حامد ثيابه. تعرّى إلا قليلاً. وَقَفَ على دكّة البلاط الأبيض المتصلة بحوضِ الماء المربع. الماء الأخضر الداكن الرجراج أخفى أجسامَ المستحمين، وأبقى على رؤوسهم المبللة. رجع حامد إلى الوراء خطوتين، ثم قفز على شكل قوسٍ، قمتُه إلى الأعلى. غاصت يداه، ثم ذراعاه، ثم جسمهُ كلُّه في الماء. انطلقتْ في أثره أمواجُ الماء دوائرَ دوائرَ متتابعةً من المركز إلى الأطراف. دوائر التجعُّدات اصطدمتْ بأطراف الحوض، قبل أن تَخْمد أو تختلط بأمواج الآخرين.

بين الانقذاف والانغماس والارتطام بالهدف مشاعرُ كثيرة. مشاعرُ إحساسات البشرة والمخيلة حين الاحتكاك بالهواء، ثم بالماء، ثم بالمادة الصلبة. «هل ذلك هو جماع مشاعر الحياة الدنيا»، تساءل حامد حين استقر في القاع؟

سوريا

الـزّربـيّــة

الأزهر الصحراوي

لمّا وصلنا قاعةَ الاجتماعات خيَّرَنا أحدُ المهتمّين بمسائل التنظيم، وقد كان منتصباً بقامته الضّخمة أمام الباب الكبير، بين الدّخول إلى القاعة أو الانتظار خارجها، لأنّ موعد وصول الوزير سيكون بعد ساعة تقريباً. فظهر الاختلاف بيني وبين شقيقتي: فقد آثرتِ الدّخولَ لتريح قدميْها من الآلام الّتي سبّبها ضيقُ حذاء جارتنا الّذي استعارتْه منها هذا الصبّاحَ، واخترتُ الانتظار خارج القاعة لضيقي بالأماكن المغلقة. فانصاعت إلى رغبتي مكرهةً. ولأتجنّب بذاءة لسانها تهالكتُ على أوّل مقعدٍ اسمنتيّ اعترضني في الحديقة الصغيرة المواجهة لقاعة الاجتماعات مباشرةً. فجلستْ حذوي، ثمّ جعلتْ تخلع الحذاءَ وتلامس قدميها وهي تقول: «ترى أين تتصوّرهم سيعرضون تلك النماذجَ المختارةَ من إنتاج الفتاة الرّيفيّة؟ وكيف ستُعْرض زربيّتي؟ وما هي الجوائز التي ستُسند إلى الفائزات»؟. تجاهلتُ أسئلتها لانشغالي بقراءةِ تحليلٍ مستفيضٍ كتبه أحدُ الشّعراء المعروفين... ولمّا حدستُ أنّها ما تزال تنتظر إجابةً، قلتُ لها: «ستعرفين كلَّ ذلك بعد نصف ساعة». ولم أعرفْ أنّي قد فتحتُ على نفسي أثناء تلفّظي بهذه الكلمات البسيطة باباً لم أَقْدرْ على غلقه؛ فقد جعلتْ تحدثني بحماسٍ بادٍ وهي تقول: «لقد أنفقتُ في نسجها سبعةً وسبعين يوماً، فلا أفارقها إلاّ للنوم أو لقضاء بعض الحاجات الملحّة. فكم هو العمر بربّك!؟ عليك أن تتخيّل أنّك قضَيْتَ سبعة وسبعين يوماً في إنجاز شيءٍ ما حتّى تسلّم بأهميّته». فانفلتتْ منّي ضحكةٌ ساخرة قطعتْ عليها حديثَها، فسكتتْ هنيهةً، ثمّ استأنفتْ تقول بعصبيّة: «لو كنتَ تعلم يا زميم الملاعين أنّ فيها قَبساً من روحي، وأنّي جعلتُ فيها كلَّ شيءٍ بمقدارٍ، لفهمتَ مقصدي. فقد جعلتُ طولَها متريْن، وعرضَها متراً ونصفاً دون زيادة أو نقصان، ثمّ جعلتُ أرضيّتها مزيجاً من الحشائش المخضرّة والنرجس والأقحوان، وفَوْقَها رسمتُ غصنَ اللوز وقد تفتّح نوّارُه، وإنّ شكله المائل لموحٍ للناظر الفطنِ أنّ مَيَلانَه راجعٌ إلى ثقل